الباب الثاني

الموت

١ ـ حقيقة الموت في التصور الاسلامي

تكثر الاشارة في القرآن إلى آيتي الحياة والموت . لأنهما تلمسان قلب الانسان بشدة وعمق ، ثم لأنهما الظاهرتان البارزتان المكررتان في كل ما يقع عليه حس الانسان . يقول الله سبحانه : « هو الذي يُحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » . « إنا نحن نحيي ونميت والينا المصير » .. « الذي له مُلك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت » .. « وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون » .. « وأنه هو أمات وأحيا » .. تنبثق من هذه النصوص صور لا عداد لها في الحس . أمات وأحيا .. أنشأ الموت والحياة ، كما قال في سورة أخرى : « الذي خلق الموت والحياة » .. وهما أمران معروفان كل المعرفة بوقوعهما المتكرر ، ولكنهما خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر أن يعرفوا طبيعتها وسرهما الخافي على الأحياء ..

فما الموت ؟ وما الحياة ؟ ما حقيقتها حين يتجاوز الانسان لفظها وشكلها الذي يراه ؟ كيف دبّت الحياة في الكائن الحي ؟ ما هي ؟ من أين جاءت وكيف تلبست بهذا الكائن فكان ؟ وكيف سارت في طريقها الذي سارت فيه بهذا الكائن أو بهذه الكائنات الاحياء ؟.. وما الموت ؟ وكيف كان ؟.. قبل دبيب الحياة .. وبعد

مفارقتها للأحياء ؟ إنه السر الخافي وراء الستر المسبل بيد الله ! أمات وأحيا .. وتنبثق ملايين الصور من الموت والحياة . في عوالم الاحياء كلها . في اللحظة الواحدة . في هذه اللحظة . كم ملايين الملايين من الأحياء ماتت . وكم ملايين الملايين بدأت رحلة الحياة ودبّ فيها هـذا السر من حيث لا تعلم وحيث لا يعلم أحد إلا الله ! وكم من ميتات وقعت فاذا هي ذاتها بواعث حياة ! وكم من هـذه الصور يتراءى على مدى القرون ، حين يستغرق الخيال في استعراض الماضي الطويل الذي كان قبل أن يكون الانسان كله على هـذا الكوكب وندع ما يعلمه الله في غير هـذا الكوكب من أنواع الموت والحياة التي لا تخطر على بال إنسان !

هـذا الموت الذي ينتهي اليه كل حي ، ما هو ؟ وكيف يقع ! وأي سلطان له لا يقـــاوم ؟ إنه قدر الله ، « نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين » ومن ثم لا يَفلت منه أحد ، ولا يسبقه فيفوته أحد ، وهو حلقـة في سلسلة النشأة التي لا بد أن تتكامل .

إنه الموت نهـــاية كل حي ، ولا يتفرد بالبقاء إلا الله ، « إنك ميت وانهم ميتون » ، وفي الموت يستوي كل البشر بما فيهم محمد رسول الله ﷺ . والموت ليس نهاية المطاف إنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبرة ، التي ليس شيء منها عبثاً ولا سدى .

إن القرآن يلمس مكمن الخوف من الموت في النفس البشرية لمسة موحية تطرد ذلك الخوف عن طريق الحقيقة الثابتة في شأن الموت وشأن الحياة وما بعد الحيـــاة والموت من حكمة لله وتدبير ، ومن ابتلاء للعباد وجزاء . يقول الله سبحانه : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً . ومن يُرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يُرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين » ..

إن لكل نفس كتاباً مؤجلاً إلى أجل مرسوم ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجل المرسوم . فالخوف والهلع ، والحرص والتخلف لا تطيل أجلاً . والشجاعة

والثبات والاقدام والوفاء لا تقصر عمراً ، فلا كان الجبن ولا نامت أعين الجبناء ، والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم أو يزيد !

بذلك تستقر حقيقة الأجل في النفس فتترك الاشتغال به ، ولا تجعله في الحساب ، وهي تفكر في الأداء والوفاء بالتكاليف والالتزامات الايمانية . وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص ، كما ترتفع على وهلة الخوف والفزع . وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزاماته ، في صبر وطمأنينة ، وتوكّل على الله الذي يملك الآجال وحده .

ثم ينتقل بالنفس خطوة وراء هذه القضية التي حسم فيها القول ، فإنه إذا كان العمر مكتوباً والأجل مرسوماً فلتنظر نفس ما قدمت لغد ، ولتنظر نفس ماذا تريد ، أتريد أن تقعد عن تكاليف الايمان ، وأن تحصر همها كله في الأرض ، وأن تعيش لهذه الدنيا وحدها ؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى ، وإلى اهتمامات أرفع وإلى حياة أكبر من هذه الحياة ؟ مع تساوي هذا الهمّ وذاك فيما يختص بالعمر والحياة .؟

« ومن يُرد ثواب الدنيـــا نؤته منها ومن يُرد ثواب الاخرة نؤته منها » .

وشتان بين حياة وحياة ! وشتان بين اهتمام واهتمام ــ اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل ــ والذي يعيش لهذه الأرض وحدها ويريد ثواب الدنيا وحدها ، إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام ! ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب . والذي يتطلع إلى الأفق الاخر ، إنما يحيا حياة الانسان ، الذي كرّمه الله واستخلفه وأفرده بهذا المكان ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب .. « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً » ...

وهكذا يقرر القرآن حقيقة الموت والحياة ، وحقيقة الغاية التي ينتهي اليهـــا الأحيـاء ، وفق ما يريدونه لأنفسهم ، من اهتمام قريب كاهتمام الدود ، أو اهتمام بعيد كاهتمام الانسان ! وبذلك ينقل النفس من الانشغال بالخوف من الموت والجـزع من التكاليف ــ وهي لا تملك شيئاً في شأن الموت والحياة ــ إلى الانشغال بمـــا هو أنفع

للنفس ، في الحقل الذي تملكه وتملك فيه الاختيار . فتختار الدنيا أو تختار الاخرة وتنال من جزاء الله ما تختار .

وكل نفس معدودة الأنفاس ، متروكة لأجل لا تعلمه – فهو بالنسبة لها غيب لا سبيل إلى كشفه – بينما هو موسوم محدود في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر وكل نفس مُوكل بأنفاسها وأجلها حفيظ قريب مباشر حاضر ، لا يغفو ولا يغفل ولا يهمل – فهو حفيظ من الحفظة – وهو رسول من الملائكة – فاذا جاءت اللحظة المرسومة الموعودة – والنفس غافلة مشغولة أدّى الحفيظ مهمته وقام الرسول برسالته . وهذا التصور كفيل كذلك بأن يرتعش له الكيان البشري وهو يحس بالقدر الغيبي يحيط به ، ويعرف أنه في كل لحظة قد يُقبض ، وفي كل نَفَس قد يحين الأجل المحتوم . « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » .

والموت غيب لا يدري انسان متى يُدركه . فمن أراد ألا يموت إلاّ مسلماً فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً . وأن يكون في كل لحظة مسلماً : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . .

فبيد الله اعطاء الحياة ، وبيده استرداد ما أعطى ، في الموعد المضروب والأجل المرسوم ، سواء كان الناس في بيوتهم وبين أهلهم ، أو في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة . وعنده الجزاء ، وعنده العوض ، عن خبرة وعن علم وعن بصر . (والله يُحيي ويميت والله بما تعملون بصير) .

فالموت يصيب المجاهد والقاعد ، والشجاع والجبان . ولا يرده حرص ولا حذر ، ولا يؤجله جبن ولا قعود ، والواقع هو البرهان الذي لا يقبل المراء ، وهذا الواقع الذي يحجّهم به القرآن الكريم ، ويقر الحق في نصابه ويثبت قلوب المسلمين ، ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين .

فالموت حتم في موعده المقدر ، ولا علاقة له بالحرب والسلم ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال إذن ، ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد يعجله عن موعده ، هذا أمر وذاك

أمر ، ولا علاقة بينهما ، إنما العلاقة هناك بين الموت والأجل ، بين الموعد الذي قدره الله وحلول ذلك الموعد ، وليست هناك علاقة أخرى ، (أينما تكونوا يدرككم الموت، ولو كنتم في بروج مشيدة) .

وبهذه اللمسة يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في الخاطر عن هذا الأمر ، وكل ما يُنشئه التصور المضطرب من خوف ومن ذعر .

إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره وحيطته وكل ما يدخل في طوقه من استعداد وأهبة ووقاية فقد سبق أن أمرهم الله بأخذ الحذر وأمرهم بالاحتياط في صلاة الخوف . كما أمرهم باستكمال العدة والأهبة ، ولكن هذا كله شيء وتعليق الموت والأجل به شيء آخر ، إن أخذ الحذر واستكمال العدة أمر يجب أن يطاع ، وله حكمته الظاهرة والخفية ، ووراءه تدبير الله ، وإن التصور الصحيح لحقيقة العلاقة بين الموت والأجل المضروب — رغم كل استعداد واحتياط — أمر آخر يجب أن يطاع ، وله حكمته الظاهرة والخفية ، ووراءه تدبير الله .

هذا هو الناموس الذي يحكم الحياة ، وهذه هي السنة التي ليس لها استثناء ، فما أجدر الأحياء أن يحسبوا حساب هذا المذاق ، « كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .

إنه الموت نهاية كل حي ، وعاقبة المطاف للرحلة القصيرة على الأرض وإلى الله يرجع الجميع ، فكل حادث فهو فانٍ وكل ماله بدء فله نهاية ، « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون » ، وإذا كان الرسول ﷺ يموت فهل هم يخلدون وإذا كانوا لا يخلدون فما لهم لا يعملون عمل أهل الموتى ؟ وما لهم لا يتبصرون ولا يتدبرون؟

فالموت حتم حين يأتي ، فلا داعي أن يحسبوا حسابه ، وهم لا يعلمون أسبابه ، (كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون) (وما تدري نفس بأي أرض تموت) فذلك أمر وراء الستر المسبل السميك الذي لا تنفذ منه الأسماع والأبصار ، إن ملك الموت يتوفى الأنفس حين ينتهي الأجل (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّل بكم) هكذا

في صورة اليقين ، فأما ملك الموت من هو ؟ و كيف يتوفى الأنفس فهذا من غيب الله الذي نتلقى خبره من هذا المصدر الوثيق الأكيد ، ولا زيادة على ما نتلقاه من هـــذا المصدر الوحيد .

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر يدفعها في الطريق المرسوم وينتهي بها إلى النهاية المحتومة ، والموت أو القتل قَدَر لا مفر من لقائه في موعده ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر . ولن ينفع الفرار في دفع القدر عن فارّ ، فاذا فروا فانهم ملاقون حتفهم المكتوب في موعده القريب وكل موعد في الدنيا قريب ، وكل متاع فيها قليل (قل لن ينفعكم الفرار من الموت أو القتل) .

فقَدَر الله هو المسيطر والأنفس في قبضته ، الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فالله يستوفي الآجال الأنفس التي تموت ، وهو يتوفاها كذلك في منامها ، وإن لم تمت بعد — ولكنها في النوم متوفاة إلى حين — فالتي حان أجلها يمسكها فلا تستيقظ ، والتي لم يحن أجلها بعد يرسلها فتصحوا إلى أن يحلّ أجلها المسمى فالأنفس في قبضته دائماً في صحوها ونومها .

فلا يعرف الانسان متى يحين أجله فيجب عليه أن يستيقظ ، فالحيـــاة إلى نهاية والموت الذي يفر منـــه فانه ملاقيه (قل إن الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

وهي لفتة من اللفتات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخـــاطبين ، تقر في الاخلاد حقيقة ينساها الناس وهي تلاحقهم أينما كانوا ، فهذه الحياة إلى انتهاء والبعد عن الله فيما ينتهي للرجعة اليه ، فلا ملجأ منه إلا اليه ، والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة ، فلا مهرب ولا فكاك .

روى الطبري في معجمه من حديث معاذ بن محمد الهذلي عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعاً : (مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب ، تطلبه الأرض بدَيْن ، فجاء يسعى ، حتى إذا أعيا وأنهر دخل حجره فقالت له الأرض : يا ثعلب ! ديني ، فخرج

له حصاص ، فلم يزل كذلك حتى انقطعت عنقه فمات) . وهي صورة موحيـــة عميقة الايحاء .

٢ – رهبة الموت

إن الموت حقيقة قاسية رهيبة تواجه كل حي ، فلا يملك لها رداً ، ولا يملك لهـا أحد ممن حوله دفعاً . وهي تتكرر في كل لحظة ، ويواجهها الكبار والصغار ، والأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعاف ، ويقف الجميع منها موقفاً واحداً ، لاحيلة. ولا وسيلة . ولا قوة . ولا شفاعة . ولا دفع ولا تأجيل . مما يوحي بأنهـا قادمة من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئاً . ولا مفر من الاستسلام لها ، والاستسلام لإرادة تلك الجهة العليـا . فبيد الله اعطاء الحياة وبيده استرداد ما أعطى في الموعد المضروب والأجل الموسوم ، سواء كان الناس في بيوتهم وبين أهلهم ، أو في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة ، وعنـده الجزاء وعنده العوض ، عن خبرة وعن علم وعن بصر ، (والله يُحيي ويميت) ، الكل مرجعه إلى الله ، محشور إلى الله ، فما لهم مرجع سوى هذا المرجع ، وما لهم مصير سوى هذا المصير . والتفاوت اذن يكون في العمل والنية وفي الاتجاه والاهتمام . أما النهاية فواحدة . الموت في الموعد المحتوم والأجل المقسوم ، ورجعة إلى الله وحشر في يوم الجمع والحشر ، ومغفرة من الله ورحمة أو غضب من الله وعذاب . فأحمق الحمقى من يختـار لنفسه المصير البائس وهو ميت على كل حال (كل نفس ذائقة الموت) . إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس . حقيقة أن الحياة في هـذه الأرض موقوتة محدودة بأجل ثم تأتي نهـايتها حتماً . يموت الصالحون ويموت الطالحون . يموت المجـــاهدون ويموت القاعدون . يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد . ويموت الشجعان الذين يأبون الضيم ، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن . يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية ، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص ، الكل يموت ، (كل نفس ذائقة الموت) . كل نفس تذوق هذه الجرعة ، وتفارق هذه الحيـاة ، لا فارق بين نفس ونفس في تذوق

هذه الجرعة من هـذه الكأس الدائرة على الجميع ، إنما الفارق في شيء آخر . الفارق في قيمة أخرى . الفارق في المصير ، (إنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز) .

هذه هي القيمة التي يكون فيها الافتراق . وهذا هو المصير الذي يفترق فيه فلان عن فلان . القيمة البـاقية التي تستحق السعي والكد . والمصير المخوف الذي يستحق أن يحسب له ألف حساب ، (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) .

ولفظ زُحزح يصور معناه بجرسه ويرسم هيئته ويلقي ظله ! وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقترب منها ، ويدخل في مجالها فهو بحاجة إلى من يزحزحه قليلاً قليلاً ليخلصه من جاذبيتها المنهومة ، فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها ويستنقذ من جاذبيتها ويدخل الجنة فقد فاز .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لما خَلق الله الجنة والنـار أرسل جبريل إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها ، قال : فجاءفنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأُمِرَ بها فحُفّت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها فرجع إليها، فقال: وعزتك لقد خِفتُ أن لا يدخلها أحد ، وقال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها ، قال : فنَظر اليها فاذا هي يركبُ بعضها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع اليها فقال : وعزتك لقد خشيتُ أن لا ينجو منها أحد) [1] .

صورة قوية . بل مشهد حي ، فيه حركة وشد وجذب ! وهو كذلك في حقيقته وطبيعته . فللنار جاذبية ! أليست للمعصية جاذبية ؟ أليست النفس في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية ؟ بلى ! وهذه هي زحزحتها عن النـار ! أليس الانسان ـ حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة ـ يظل أبداً مقصراً في العمل إلا أن

---

(١) رواه أبو داود والنسائي والترمذي واللفظ له وقال : حديث حسن صحيح .

يُدرِكه فضل الله ؟ بلى وهذه هي الزحزحة عن النار ، حين يدرك الانسان فضل الله ، فيزحزحه عن النار !

إن الموت هو نهاية الحياة الأرضية ، وبرزخ ما بين الدنيا والاخرة ، (ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) ، فالموت إذن طور من أطوار النشأة الانسانية وليس نهاية الأطوار . ثم هو البعث المؤذن بالطور الأخير من أطوار تلك النشأة .

وبعد ذلك تبدأ الحياة الكاملة ، المبرأة من النقائص الأرضية ، ومن ضرورات اللحم والدم ، ومن الخوف والقلق ، ومن التحول والتطور لأنها نهاية الكمال المقدر لهذا الانسان . وذلك لمن يسلك طريق الكمال . الطريق الذي رسمه الله . طريق المؤمنين فأما من ارتكس في مرحلة الحياة الدنيا إلى درك الحيوان فهو صائر في الحياة الأخرى إلى غاية الارتكاس . حيث تهدر آدميته ، ويستحيل حصباً من حصب جهنم ، التي وقودها الناس والحجارة . والناس من هذا الصنف هو والحجارة سواء .

والقرآن الكريم يواجه الناس بمشهد الاحتضار ، هذا المشهد القاسي (كلا إذا بلغت التراقي وقيل مَن راق وظن أنه الفراق ، والتفّت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق) .

إنه مشهد الموت . الموت الذي ينتهي إليه كل حي ، والذي لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حي . الموت الذي يفرق بين الأحبة ، ويمضي في طريقه لا يتوقف ، ولا يتلفت ، ولا يستجيب لصرخة ملهوف ، ولا لحسرة مفارق ، ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف !

الموت الذي يصرع به الجبابرة بنفس السهولة الذي يصرع به الأقزام ، ويقهر به المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء ! الموت الذي لا حيلة للبشر فيه . وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه . وحين تبلغ الروح التراقي يكون النزع الأخير ، وتكون السكرات المذهلة ، ويكون الكرب الذي تزوغ منه الأبصار ، ويتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ روح المكروب : (وقيل

مَن راق) ، لعلّ رُقية تفيد !.. وتلوي المكروب من السكرات والنزع (والتفت الساق بالساق) وبطلت كل حيلة ، وعجزت كل وسيلة ، وتبين الطريق الواحد الذي يُساق إليه كل حي في نهاية المطاف ، (إلى ربك يومئذ المساق) .

إن المشهد ليكاد يتحرك وينطق وكل آية ترسم حركة . وحالة الاحتضار ترتسم ويرتسم معها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية المريرة التي لا دافع لها ولا رادّ ، إنه الطريق إلى الله (وإن إلى ربك المنتهى) فلا طريق إلا الطريق الذي ينتهي إليه . ولا ملجأ من دونه . ولامأوى إلا داره : في نعيم أو جحيم . لهذه الحقيقة قيمتها وأثرها في تكييف مشاعر الانسان وتصوره . فحين يحسّ الانسان أن المنتهى إلى الله . منتهى كل شيء . وكل أمر . وكل أحد . فانه يستشعر من أول الطريق نهايته التي لا مفر منها ولا محيص عنها . ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة أويحاول في هذا ما يستطيع . ويظل قلبه ونظره معلقين بتلك النهاية منذ أول الطريق .

فماذا يفعل الانسان حين تبلغ روحه الحلقوم (فلولا إذا بلغت الحلقوم) ، فماذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الحلقوم ، وتقفون فيمفرق الطريق المجهول . إننا لنكادنسمع صوت الحشرجة ، ونبصر تقبض الملامح ، ونحس الكرب والضيق ، كما نبصر نظرة العجز وذهول اليأس في ملامح الحاضرين :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (لما ثَقُل رسول الله ﷺ ، جَعَل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة : واكرب أبتاه ؟! فقال لها : ليس على أبيك كرب بعد الموت ، فلما مات قالت : يا أبتاه ، أجابَ ربّاً دعاه ، يا أبتاه ، جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه ، فلما دُفن قالت : يا أنس ، كيف طابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب [1] ؟) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ألَم تروا إلى الانسان : إذا ماتَ شَخَصَ بصرُه ؟ قالوا : بلى ، قال : فذلك حين يتبع بصرُه نفسه [2]) وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت (دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه مسلم .

— وقد شق بصره — فأغمضه ، ثم قال : إن الروح إذا قُبض تبعه البصر ، فضجّ ناس من أهله ، فقال : لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ، فان الملائكة يؤمّنون على ما تقولون ، ثم قال : اللهم اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهديين ، واخلفه في عَقبه في الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين ، وافسح له في قبره ، ونوّر له فيه [1]) .

هنا في هذه اللحظة وقد فرغت الروح من أمر الدنيا ، وخلّفت وراءها الأرض وما فيها . وهي تستقبل عالماً لا عهد لها به . ولا تملك من أمره شيئاً إلا ما ادخرت من عمل ، وما كسبت من خير أو شر . هنا . وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى . وقد انفصلت عمن حولها وما حولها . الجسد هو الذي يراه الناظرون . ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئاً . هنا تقف قدرة البشر ، ويقف علم البشر . وينتهي مجال البشر . هنا يعرفون — ولا يجادلون — أنهم عجزة عجزة . قاصرون قاصرون . هنا تتفرد القدرة الإلهية والعلم الإلهي . ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال ، (ونحن أقرب اليه منكم ولكن لاتبصرون) ، وهنا يجلل الموقف جلال الله ، ورهبة حضوره — سبحانه وتعالى — وهو حاضر في كل وقت . ولكن التعبير يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التي يغفل عنها البشر . فاذا مجلس الموت تجلله رهبة الحضور وجلاله . فوق ما فيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع .

وفي ظل هذه المشاعر الراجفة الواجفة الآسية الآسفة يجيء التحدي الذي يقطع كل قول وينهي كل جدال (فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين) فلو كان الأمر كما تقولون : إنه لا حساب ولا جزاء . فأنتم إذن طلقاء غير مدينين ولا محاسبين فدونكم إذن فلترجعوها — وقد بلغت الحلقوم — لتردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء ، وأنتم حولها تنظرون . وهي ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون .

هنا تسقط كل علة . وتنقطع كل حجة . ويبطل كل محال . وينتهي كل جدال .

---

(١) أخرجه مسلم .

ويثقل ضغط هذه الحقيقة على الكيان البشري ، فلا يصمد له ، إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل . (فأما إن كان من المقربين فَرَوح وريحان وجنة نعيم) فالروح هنا ترى علائم النعيم الذي ينتظرها : رَوْح وريحان وجنة نعيم . والألفاظ ذاتها تقطر رقة ونداوة . وتلقي ظلال الراحة الحلوة ، والنعيم اللين والانس الكريم . (وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين) يبلغه سلام اخوانه من أصحاب اليمين . وما أندى السلام ساعتئذ وما أحبه . حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم ! فيطمئن باله ويشعر بالانس في الصحبة المقبلة مع أصحاب اليمين .

(وأما إن كان من المكذبين الضالين فنُزُل من حميم وتصلية جحيم إن هذا لهو حق اليقين) ، وما أسوأه نزلاً ومثوى ذلك الحميم الساخن . وما أشده عذاباً ذلك الجحيم. يتراءى له ويعلم أنه ملاقيه عن يقين .

إن مشهد الاحتضار ذو لمسة عميقة مؤثرة . حين تبلغ الروح الحلقوم ، ويقف صاحبها على حافة العالم الاخر ، ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين ، لا يملكون له شيئاً ، ولا يدرون ما يجري حوله ، ولا ما يجري في كيانه . ويخلص أمره كله لله . قبل أن يفارق هذه الحياة . ويرى هو طريقه المقبل ، حين لا يملك أن يقول شيئاً عما يرى ولا أن يشير .

ويتمنى الانسان أن يعود في هذه اللحظة إلى الدنيا يعمل صالحاً ، (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : ربّ ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت . كلا إنها كلمة هو قائلها) ، إنه مشهد الاحتضار واعلان التوبة عند مواجهة الموت ، وطلب الرجعة إلى الحياة ، لتدارك ما فات ، والاصلاح فيما ترك وراءه ، فاذا الردّ على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء ، إنما يعلن على رؤوس الأشهاد ، (كلا إنها كلمة هو قائلها) ، كلمة لا معنى لها ولا مدلول وراءها ، ولا تنبغي العناية بها أو بقائلها . إنها كلمة الموقف الرهيب ، لا كلمة الاخلاص المنيب . كلمة تُقال في لحظة الضيق ، ليس لها في القلب من رصيد . وإذا الحواجز قائمة بين قائل هذه الكلمة والدنيا جميعاً . فلقد قُضي الأمر ، وانقطعت الصلات ، وأغلقت الأبواب ، وأسدلت الأستار ،

(ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) ، فلا هم من أهل الدنيـــا ، ولا هم من أهل الآخرة . إنما هم في ذلك البرزخ بَين بين ، إلى يوم يُبعثون .

٣ – الامل القاتل

يقول الله سبحانه : (إن الذين لا يؤمنون بالاخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون) ، إن الايمان بالاخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات ، ويضمن القصد والاعتدال في الحياة . والذي لا يعتقد بالآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة أو يكبح فيها نزوة ، وهو يظن أن الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هي فرصة الحياة على هـذا الكوكب ، وهي قصيرة مهما طالت . وما تكاد تتسع لشيء من مطالب النفوس وأمانيها التي لا تُنـــال ! ثم ما الذي يمسكه حين يملك ارضاء شهواته ، وتحقيق لذاته ورغبـــاته ، وهو لا يحسب حساب وقفة بين يدي الله ، ولا يتوقع ثواباً ولا عقـاباً يوم يقوم الأشهاد ، ومن ثم يصبح كل تحقيق للشهوة واللذة مُزَيِّناً للنفس التي لا تؤمن بالآخـرة ، تندفع إليه بلا معوق من تقوى أو حياء ، والنفس مطبوعة على أن تحب ما يلذ لهـا ، وأن تجده حسناً جميلاً ؛ ما لم تهتد بآيات الله ورسالاته الى الايمان بعالم آخر باق بعد هذا العالم الفاني فإذا هي تجد لذتها في أعمال أخرى وأشواق أخرى ، تصغر إلى جوارها لذائذ البطون والأجسام ، والذين لا يؤمنون بالآخرة فهم في حياة حيوانية للأكل والمتاع (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلهِهم الأمل فسوف يعلمون) ، ذرهم فيما هم فيه من حيـاة حيوانية محضة للأكل والمتـاع . لا تأمل فيها ولا تدبر ولا استطلاع . ذرهم في تلك الدوامة ، الأمل يلهي والمطامع تعز ، والعمر يمضي والفرصة تضيـع . ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء الهالكين ، الذين ضلوا في متـاهة الأمل والغرور ، يلوح لهم ويشغلهم بالأطماع ، ويملي لهم فيحسبون أن أجلهم ممدود وأنهم محصلون ما يطمعون لا يردهم عنه رادّ ، ولا يمنعهم منه مانع ، وأن ليس وراءهم حسيب ، وأنهم ناجون في النهـــاية بما

ينالون مما يطمعون ، وصورة الأمل الملهي صورة إنسانية حية ، فالأمل البراق مايزال يخايل لهذا الانسان ، وهو يجري وراءه ، وينشغل به ، ويستغرق فيه ، حتى يجاوز المنطقة المأمونة ، وحتى يغفل عن الله ، وعن القدر ، وعن الأجل ، وحتى ينسى أن هناك واجباً ، وأن هناك محظوراً ، بل حتى ليس أن هناك إلهاً ، وان هناك موتاً . وان هناك نشورا . وهذا هو الأمل القاتل .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خطّ رسول الله ﷺ خطّاً ، وقال : (هذا الإنسان) ، وخطّ إلى جانبه خطّاً ، وقال : (هذا أجله) ، وخطّ آخر بعيداً منه ، فقال : (هذا الأمل) ، فبينما هو كذلك ، إذ جاءه الأقرب [1]) .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أربعة من الشقاء : جمود العين ، وقسوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا [2]) .

عن ابن عمر رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي ، فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) . وكان ابن عمر يقول : (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك [3] ومن حياتك لموتك [4]) .

وفي رواية الترمذي قال : أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي ، فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعدّ نفسك من أهل القبور ، قال مجاهد : فقال لي ابن عمر : (إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البزار .

(٣) أي بادر أيام صحتك بالعمل الصالح ، فان المرض قد يطرأ ، فيمنع عن العمل ، فيخشى على من فرط في ذلك أن يصل الى المعاد بغير زاد ؛ ولا يعارض ذلك الحديث الصحيح « اذا مرض العبد أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحا مقيما » لانه ورد في حق من يعمل ، والتحذير في حديث ابن عمر في حق من لم يعمل ، فانه اذا مرض ندم على تركه العمل وعجزه لمرضه عن العمل ، فلا يفيده الندم .

(٤) رواه البخاري .

نفسك بالصباح ، وخُذ من صحتك لسقمك ، ومن حياتك قبل موتك ، فانك لاتدري يا عبد الله ما اسمك غداً) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لرجل وهو يعظه : (اغتنم خمساً قبل خمس : (شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك [1]) .

وعن عبد الرحمن السُلمي قال : نزلنا من المدائن على فرسخ ، فلما جاءت الجمعة حَضَرنا . فخطبنا حذيفة فقال : إن الله عز وجل يقول (اقتربت الساعة وانشق القمر) . ألا وإن الساعة اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار ، وغداً السباق ، فقلتُ لابي أيسبقُ الناسَ غداً ؟ قال : إنك لجاهل ، إنما يعني العمل اليوم والجزاء غداً فلما جاءت الجمعة الأخرى حضرنا فخطبنا حذيفة فقال : إن الله يقول : (اقتربت الساعة وانشق القمر) . ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة [2]) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (اقتربت الساعة ولا تزداد منهم إلا بُعدا)وفي رواية الحاكم لفظه : (قال رسول الله ﷺ :(اقتربت الساعة ، ولا يزداد الناس على الدنيا إلاحرصاً ، ولا تزدادون من الله إلا بُعداً [3]) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : مَرَّ بي النبي ﷺ وأنا أطين حائطاً لي أنا وأمي ، فقال : ما هـذا يا عبد الله ؟ فقلتُ يا رسول الله وهي ، فنحن نصلحه ، فقال : الأمر أسرع من ذلك [4]) .

عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (هل تدرون ما مَثَلُ

---

(١) أخرجه الحاكم ٣٠٦/٤ وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وهو كما قالا ، وقال الحافظ في « الفتح » واسناده حسن ، اخرجه ابن المبارك في الزهد والخطيب في اقتضاء العلم والعمل بسند صحيح .

(٢) رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد .

(٣) رواه الطبراني ورواته محتج بهم في الصحيح ، والحاكم وقال صحيح الاسناد .

(٤) رواه ابو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح ، وابن ماجه وابن حبان في صحيحه .

هذه وهذه ؟ ورمى بحصاتين ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : (هذا الأمل ، وهذاك الأجل[1]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (أعذر الله[2] إلى امرىء ، أخّر أجله حتى بلغ ستين سنة[3]) .

قال ابن بطال : إنما كانت الستون حداً لهذا ، لأنها قريبة من المعترك وهي سن الانابة والخشوع ، وترقب المنية ، فهذا إعذار بعد إعذار ، لطفاً من الله لعباده حتى نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم ، ثم اعذر اليهم ، فلم يعاقبهم إلا بعد الحجج الواضحة ، وإن كانوا فطروا على حب الدنيا وطول الأمل ، لكنهم أمروا بمجاهدة النفس في ذلك ليمتثلوا ما أمروا به من الطاعة ، وينزجروا عما نهوا عنه من المعصية .

إن الآخرة حلقة في سلسلة النشأة ، وصفحة من صفحات الوجود الكثيرة . والذين لا يدركون حكمة النشأة ولا يدركون ناموس الوجود يغفلون عن الآخرة ، ولا يقدرونها قدرها ، ولا يحسبون حسابها ، ولا يعرفون أنها نقطة في خط سير الوجود ، لا تتخلف مطلقاً ولا تحيد ، والغفلة عن الاخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل ، وتؤرجح في أكفهم ميزان القيم ، فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصوراً صحيحاً ، ويظل علمهم بها ظاهراً سطحياً ناقصاً ، لأن حساب الاخرة في ضمير الانسان يغير نظرته لكل ما يقع في هذه الأرض . فحياته على الأرض إن هي إلا رحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون . ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من

---

(١) أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب ، وأقره المنذري على تحسينه في الترغيب والترهيب

(٢) الاعذار : ازالة العذر ، والمعنى انه لم يبق له اعتذار ، كأن يقول : لو مُدَّ لي في الاجل لفعلت ما أمرت به . يقال : أعذر اليه : اذا بلغه أقصى الغاية في العذر ، ومكّنه منه ، واذا لم يكن له عذر في ترك الطاعة مع تمكنه منها بالعمر الذي حصل له فلا ينبغي له حينئذ الا الاستغفار والطاعه والاقبال على الآخرة بالكلية ، ونسبة الاعذار الى الله مجازية ، والمعنى ان الله لم يترك للعبد سببا في الاعتذار يتمسك به ، والحاصل أنه لا يعاقب الا بعد حجة .

(٣) رواه البخاري .

نصيبه الضخم في الوجود . والأحداث والأحوال التي تتم في هذه الأرض إن هي إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة . ولا ينبغي أن يبني الانسان حكمه على رحلة قصيرة من الرحلة الطويلة ، وقدر زهيد من النصيب الضخم ، وفصل صغير من الرواية الكبيرة ، ومن ثم لا يلتقي انسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها ، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) ، لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة ، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة ، ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حادثة أو حالة أو شأن من الشؤون . فلكل منهما ميزان ، ولكل منهما زاوية للنظر ، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والاحداث والقيم والأحوال . هذا يرى ظاهراً من الحياة الدنيا ، وذاك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ، ونواميس شاملة للظاهر والباطن ، والغيب والشهادة ، والدنيا والاخرة ، والموت والحياة ، والماضي والحاضر والمستقبل ، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء ، وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذي ينقل الاسلامُ البشريةَ إليه ، ويرفعها فيه إلى المكان الكريم اللائق بالانسان خليفة الله في الأرض . المستخلف بحكم ما في كيانه من روح الله ، حقاً أنه لا يجتمع في قلب واحد جدية الاعتقاد بلقاء الله والشعور بحقيقة هذا اللقاء مع التميع في تصور جزائه وعدله ، يقول الحسن البصري رحمه الله (هيهات هيهات ، أهلك الناسَ الأماني ، قول بلا عمل ، ومعرفة بغير صبر ، وإيمان بلا يقين ، مالي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً ، وأسمع حسيساً ولا أرى أنيساً ، دخل القوم والله ثم خرجوا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وحرّموا ثم استحلّوا ، إنما دين أحدكم لعقة على لسانه ، إذا سُئِلَ أمؤمن أنت بيوم الحساب ؟ قال : نعم ! كذب ومالك يوم الدين) .

حقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله مع الاعراض عن الاحتكام إلى الله وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة ، فالدنيا ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة ، ووراءها الآخرة ، والمتاع فيها هو المتاع — فضلاً على أن المتاع فيها طويل كثير فهي خير (خير لمن اتقى) وفي الآخرة الجزاء الأوفى .

وعن الإمام علي رضي الله عنه قال : (إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة . ألا وإن الدنيا ارتحلت مدبرة ، وارتحلت الاخرة مقبلة ، ولكل واحدة منها بنون ، فكونوا من أبناء الاخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فان اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل[1])

وعن عبد الله عن النبي ﷺ قال : (الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك[2]) .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : أوصني قال (عليك بالأياس مما في أيدي الناس ، وإياك والطمع فانه الفقر الحاضر ، وصَلِّ صلاتك وأنت مودع ، وإياك وما يُعتذر منه[3]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بادروا بالأعمال : فتناً كقطع الليل المظلم ، يُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا[4] .

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم ، أو أمر العامة[5]) .

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أوموتاً مجهزاً ، أو الدجال ، فشرٌ غائب ينتظر ، أو الساعة ، فالساعة أدهى وأمر[6]) .

---

(١) الحافظ في الفتح .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه الحاكم والبيهقي وقال الحاكم : صحيح الاسناد .

(٤) ، (٥) رواه مسلم .

(٦) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

إن التكذيب بيوم الدين هو رأس البلايا : (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ، في جنات يتساءلون عن المجرمين ، ما سلككم في سقر ، قالوا لم نكُ من المصلين ، ولم نكُ نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) .

إن الذي يكذب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين ، وتضطرب في تقديره جميع القيم ، ويضيق في حسّه مجال الحياة ، حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض ، ويقيس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير ، فلا يطمئن إلى هذه العواقب ولا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير ، ومن ثم تفسد مقاييسه كلها ، ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا ، قبل أن يفسد عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها ، وينتهي من ثم إلى شر مصير ، فيأتيه الموت الذي يقطع كل شك وينهي كل ريب ، ويفصل في الأمر بلا مرد ، ولا يترك مجالاً لندم ولا توبة ولا عمل صالح ، وبعد الموت البعث والنشور (ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه) ، ذلك الجمع الذي لا ريب فيه يشي بما وراءه من عناية الله سبحانه بعباده من الناس ، فقد خلقهم لأمر واستخلفهم في هذه الأرض لغاية ، ولم يخلقهم عبثاً ، ولم يتركهم سدى ولكن يجمعهم الى يوم القيامة — فهذا اليوم هو نهاية المطاف الذي يفيؤون اليه كما يفيء الراحل الى وجهته — فيعطيهم جزاء كدحهم اليه ، فلا يضيع عليهم كدح ولا أجر ، إنما يُوفّون أجورهم يوم القيامة ، لن يخسر في هذا اليوم الا الذين لم يؤمنوا في الدنيا ، وهؤلاء لن يخسروا شيئاً ويكسبوا شيئاً ، هؤلاء خسروا كل شيء (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) ، فقد خسروا أنفسهم كلها ، فلم يعودوا يملكون أن يكسبوا شيئاً ، أليس ان الانسان إنما يكسب لنفسه ؟ فإذا خسر نفسه ذاتها فماذا يكسب ؟ ولمن يكسب ؟

لقد خسروا أنفسهم وفقدوها ، فلم تعد لهم نفس تؤمن ، ان الذين لا يؤمنون بهذا الدين — مع عمق ندائه وإيحائه للفطرة بموحيات الايمان ودلائله — هؤلاء لا بد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم ، لا بد أن تكون أجهزة الاستقبال والاستجابة

الفطرية في كيانهم معطلة مخربة ، أو محجوبة مغلقة ، فهم في هـــذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها ، بفقدانهم أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية الحية في كيانها ، ومن ثم فهم لا يؤمنون ، إذ أنهم لم يعودوا يملكون أنفسهم التي بها يؤمنون ، هـذا هو الذي يحدد مصيرهم في ذلك اليوم ، وهو الخسارة الكبرى المترتبة على خسارتهم من قبل لنفوسهم.

ان عدم الخوف من الآخرة هو الذي ينأى بالناس عن التذكرة وينفّرهم من الدعوة (كلا بل لا يخافون الاخرة) ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الاخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن ، وإن هذا القرآن هو تنبه وتذكر .. (كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره) ، فمن شاء فليذكر ، ومن لم يشأ فهو وشأنه ، وهو ومصيره ، وهو وما يختار من جنة وكرامة أو من سقر ومهانة .

يقول الإمام الغزالي : (إن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل والاخر حبّ الدنيا ، أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنِسَ بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً دَفَعه عن نفسه ، والانسان مشغوف بالأماني الباطلة فيُمَنّي نفسه أبداً بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج اليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه ، فان خَطَر له في بعض الاحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوّف ووَعَد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر فيقول إلى أن تصير شيخاً ، فاذا صار شيخاً قال : إلى أن تفرغ من بنـــاء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك ، فلا يزال يسوّف ويؤخر ولا يخوض في شُغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أُخر ، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ، ويفضي به شغل إلى شُغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية في وقت

لايحتسبه فتطول عند ذلك حسرته . وأكثر أهل النار وصياحهم ممن سوّف يقولون: واحزناه من سوّف ، والمسوّف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً ، وانما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً ، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط ، وهيهات فما يفرغ منها إلا من طرحها .

وأصل هذه الأماني كلها حبُّ الدنيا والانس بها . وأما الجهل فهو أن الانسان قد يعود على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدّوا لكانوا أقل من عُشر رجال البلد ، وإنما قلّوا لأن الموت في الشباب أكثر ، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب ، وقد يستبعد الموت لصحته ، ويستبعد الموت فجأة ولا يدري أن ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد ، وكل مرض فانما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً ، ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبداً يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يُقدر نزوله به ووقوعه فيه ، وهو أبداً يظن أنه يُشيع الجنائز ولا يُقدر أن تُشيّع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره ، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه ، فانه لم يقع وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه . فهو الأول وهو الآخر وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بد وأن تُحمل جنازته ويدفن في قبره ، فنسيانه جهل محض ، وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا ، فعلاجه دفع سببه ، أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الخاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة ، وأما حب الدنيا فالعلاج في اخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين ، علاجه ولا علاج له إلا الايمان باليوم الآخر بما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ، ومهما حصّل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا ، فان حبّ الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير . فاذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت الى الدنيا كلها وإن أُعطي مُلك الأرض من المشرق إلى

المغرب ، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغص ، فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الايمان بالاخرة . وعلاج تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال ، وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا ، أما من كان مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً ، وأما من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً ، فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة ، وكيف تتفتت عظامها . وليتفكر فما على بدنه شيء الا وهو طعمة الدود ، وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى[1].

٤ ــ ذكر الموت

إن القرآن يصيح بقوم غافلين مخمورين سادرين ، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة وحسّهم مسحور (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) أيها السادرون المخمورون . أيها اللاهثون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون . أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه . أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون الى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر ، استيقظوا وانظروا .

ثم يقرع القرآن قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك . (كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين لترونّ الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم) ويزيد في التوكيد عمقاً ورهبة ، وتلويحاً بما وراءه من أمر ثقيل ، لا يتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والاستكثار . إنه إيقاع يدع المخمور يفيق ، والغافل يتنبه ، والسادر يتلفت ، والناعم يرتعش ويرتجف مما في يديه من نعيم .

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل ، وتنتهي ومضة الحياة الدنيا وتنطوي صفحتها الصغيرة ، ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال . وان ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ، ويتقاضى الاستعداد للآخرة ، والغفلة عن

---

(١) احياء علوم الدين جزء ٤ صفحة ٤٤١ .

الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا ، وقد حثّ رسول الله ﷺ على الاكثار من ذكر الموت فقال : (أكثروا ذكر هادم اللذات[1]) يعني الموت .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ بمجلس وهم يضحكون ، فقال (أكثروا من ذكر هادم اللذات[2]) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلتُ : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟ قال (كانت عبَراً كلها : عجبتُ لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، عجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن اليها ، وعجبتُ لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل[3]) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أتيتُ النبي ﷺ عاشرَ عشرة ، فقام رجل من الأنصار فقال : يا نبي الله : من أكيسُ الناس ، وأحزم الناس ؟ قال : (أكثرهم ذكراً للموت ، وأكثرهم استعداداً للموت ، أولئك الأكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة[4]) .

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : مات رجل من أصحاب النبي ﷺ فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يُثنون عليه ، ويذكرون من عبادته ورسول الله ﷺ ساكت ، فلما سكتوا . قال رسول الله ﷺ هل كان يكثر ذكر الموت ؟) قالوا : لا ، قال (فهل كان يدع كثيراً مما يشتهي ؟) قالوا : لا ، قال (ما بلغ صاحبكم كثيراً مما تذهبون إليه[5]) .

وعن البراء رضي الله عنه قال : (كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة ، فجلس على شفير القبر فبكى حتى بَلّ الثرى ، ثم قال : (يا إخواني لمثل هذا فأعدّوا[6]) .

---

(١) رواه ابن ماجه ، والترمذي وحسنه عن ابي هريرة ومعناه تمصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم اليها فتقبلوا على الله تعالى .

(٢) رواه البزار باسناد حسن .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه وغيره .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت ، والطبراني في الصغير باسناد حسن .

(٥) رواه الطبراني باسناد حسن .

(٦) رواه ابن ماجه باسناد حسن

وعن معاذ رضي الله عنه قال : قلتُ يا رسول الله أوصني ، قال : (اعبد الله كأنك تراه ، واعدد نفسك في الموتى ، واذكر الله عند كل حجر وعند كل شجر ، وإذا عملتَ سيئة فاعمل بجنبها حسنة ، السرُّ بالسر ، والعلانية بالعلانية[1]) .

يقول الامام الغزالي (اعلم أن المنهمك في الدنيا المكبَّ على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره ، وإذا ذُكِّر به كرهه ونفَر منه ، أولئك هم الذين قال الله فيهم (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

ثم الناس إما منهمك وإما تائب مبتدىء أو عارف منته . أما المنهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمّته ، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بُعدا ، وأما التائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل اصلاح الزاد ، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ (من كره لقاء الله كره الله لقاءه[2]) .. فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله ، وانما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ (من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقلت يا نبي الله : أكراهية الموت ، فكلنا يكره الموت ؟ قال : (ليس ذلك . ولكن المؤمن إذا بُشِّر برحمة الله ورضوانه وجنته أحبَّ لقاء الله ، فأحبَّ الله لقاءه ، وإن الكافر إذا بُشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله ، وكره الله لقاءه[3]) .

وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (من أحبَّ لقاء الله

---

(١) رواه الطبراني باسناد جيد .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

أحبّ الله لقاءه ، ومن كره لقـــاء الله كره الله لقاءه) . قلنا : يا رسول الله ، كلنا يكره الموت ؟ قال (ليس ذلك كراهية الموت ، ولكن المؤمن إذا حُضِرَ جاءه البشير من الله فليس شيء أحبّ اليه من أن يكون قد لقي الله ، فأحبّ الله لقـاءه ، وان الفـاجر – أو الكافر – إذا حُضِرَ جاءه ما هو صائر اليه من الشر – أو ما يلقى من الشر – فكره لقاء الله ، فكره الله لقاءه [1]) .

وأما العارف فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد للقائه مع ربّ العالمين ، وهـذا في غالب الأمر يستبطىء مجيء الموت ، ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار الله .. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (تحفة المؤمن الموت [2]) . وأعلى منها رتبة من فـوّض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة بل يكون أحبّ الاشياء اليه أحبها إلى مولاه ، فهذا مقام التسليم والرضـا وهو الغاية والمنتهى .

عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (لا يتمنّ أحدكم الموت لضُرّ نزل ، فان كان ولا بد فاعلاً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي [3]) .

وعن أم الفضل رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل على العباس وهو يشتكي ، فتمنى الموت ، فقال (يا عباس عم رسول الله ﷺ – لا تتمنّ الموت ، إن كنتَ محسناً تزداد احساناً إلى احسانك خيرٌ لك ، وإن كنتَ مسيئاً ، فأن تؤخّر تستعتب من إساءتك خيرٌ لك ، لا تتمنّ الموت [4]) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ (لا تتمنوا الموت فان هول المطلع شديد ، وان من السعادة أن يطول عمر المرء ، ويرزقه الله الانابة[5]) .

---

(١) رواه أحمد ورواته رواة الصحيح ، والنسائي باسناد جيد .

(٢) رواه الطبراني باسناد جيد .

(٣) رواه البخاري ومسلم وابو داود والترمذي والنسائي .

(٤) رواه احمد والحاكم واللفظ له وقال : صحيح على شرطهما .

(٥) رواه أحمد باسناد حسن والبيهقي

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ قال (من طال عمره وحسُن عمله) قال : فأي الناس شر قال : (من طال عمره وساء عمله [1]) .

عن عبد الله بن شداد أن نفراً من بني عُذرة ثلاثة أتوا النبي ﷺ فأسلموا ، قال : فقال النبي ﷺ (من يكفيهم ؟) قال طلحة أنا ، قال : فكانوا عند طلحة ، فبعث النبي ﷺ بعثاً ، فخرج فيه أحدهم فاستشهد ، ثم بعث بعثاً فخرج فيه آخر فاستشهد ، ثم مات الثـــالث على فراشه ، قال طلحة : فرأيتُ هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنـة ، فرأيت الميتَ على فراشه أمامهم ، ورأيت الذي استشهد أخيراً يليه ، ورأيت أولهم آخرهم ، قال : فداخلني من ذلك ، فأتيت النبي ﷺ فذكرتُ ذلك له فقال : (وما أنكرتَ من ذلك ؟ ليس أحد أفضل عند الله عز وجل من مؤمن يعمّر في الاسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله [2]) .

وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل ، فان المنهمك أيضاً يستفيد بذكر الموت في التجافي عن الدنيـا ، إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته ، وكل ما يكدّر على الانسان اللذات فهو من أسباب النجاة) .

ويقول الغزالي (إن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه ، فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر الى مفازة مخطرة أو يركب البحر فانه لا يتفكر إلا فيه ، فاذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقلّ فرحه وسروره بالدنيا ، وينكسر قلبه ، وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورتهم في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محا التراب الآن حُسن صورهم وكيف

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، والطبراني باسناد صحيح ، والحاكم .

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى ورواتهما رواة الصحيح .

تبددت أجزاؤهم في قبورهم ، وكيف ضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم ، فمهما تذكر رجل رجلاً وفصل في قلبه حاله وكيفية موته وتوهّم صورته وتذكر نشاطه وتردده للعيش والبقاء ونسيانه للموت ، واغتراره بواتاة الأسباب وركونه إلى القدرة والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد ، والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وأنه كان ينطق وقد أكلَ الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد أكلَ التراب أسنانه ، وكيف كان يدبر لنفسه ما لايحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يُراد به حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملَك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار ، فعندذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم . وقال أبو الدرداء رضي الله عنـــه : إذا ذكرتَ الموتى فعُدّ نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد من وُعظ بغيره .

وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً الى الله عز وجل تضعونه في صدع من الأرض وقد توسّد التراب وخلّف الأحباب ، وقطع الأسباب .

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور . قال ابن مسعود رضي الله عنه (تلا رسول الله ﷺ — (فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) — فقال : (إن النور إذا دخل الصدر انفسح) فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة تُعرف ؟ قال : (نعم ، التجافي عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله[1]) .

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في قصر الامل والحاكم في المستدرك .

وقال ﷺ (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ[1]) أي لا يغتنمها . ثم يعرف قدرهما عند زوالها .

وقال ﷺ (من خاف أدلج[2] ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة[3]) .

وقال رسول الله ﷺ (جاءت الموت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه[4]).

وأما ذكر الموت بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقته ..

عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (الكيّسُ من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني[5]) .

٥ — سكرات الموت

إن الموت هو أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغ منه ، أو يبعد شبحه عن خاطره . ولكن أنّى له ذلك . والموت طالب لا يَمَلّ الطلب . ولا يبطىء الخطى ، ولا يخلف الميعاد .. وإذا جاء تأتي سكراته .. (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنتَ منه تحيد) ..

وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب في الأوصال . وانه ليرجف لصداها وهو بعد في عالم الحياة ! فكيف به حين تقال له وهو يعاني السكرات ! وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ — لما تغشاه الموت — جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : (سبحان الله إن للموت لسكرات) .. كما كان يدعو ﷺ (اللهم هوّن على

---

(١) رواه البخاري من حديث ابن عباس .

(٢) الإدلاج : السير من أول الليل ، ومعنى الحديث أن من خاف الزمه الخوف السلوك الى الآخرة .

(٣) أخرجه الترمذي من حديث ابي هريرة وقال حديث حسن .

(٤) رواه الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب .

(٥) رواه ابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن .

محمد سكرات الموت) . يقولها وقد اختار الرفيق الأعلى واشتاق إلى لقاء الله. فكيف بمن عداه ؟ فكيف بالظالمين ؟ (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق و كنتم عن آياته تستكبرون) .

مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب . الظالمون في غمرات الموت وسكراته – ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب – والملائكة يبسطون اليهم أيديهم بالعذاب ، وهم يطلبون أرواحهم للخروج ! وهم يتابعونهم بالتأنيب .

يقول الإمام الغزالي : (اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً بأن يتنغّص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته . وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لا سيما وهو في كل نفَس بصدده كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك .. واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذقها فانما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها ، وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدة ما هم فيه .. فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحسّ بالألم فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح . فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسري إلى الروح يتألم ، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم ، فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده .

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق بجميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حلّ به الألم ، فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار فتحسّه الأجزاء الروحانية المنتشرة

في سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذي مسّه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار . فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه ، فانه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب ، وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم . فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا : إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف ، إنما يؤلم لتعلقه بالروح . فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح ، وانما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهدّ كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغاثة . فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه وأربد حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله ، فالألم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه وتتقلص الشفتان وينقلص اللسان إلى أصله ، وتخضر أنامله ، فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً فكيف والمجذوب نفس الروح لا من عرق واحد بل من جميع العروق ، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه . ولكل عضو سكرة بعد سكرة و كربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله ﷺ (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر[1]) .

فلا تسأل عن طعم مرارة الموت و كربه عند ترادف سكراته . فقد روي عن النبي ﷺ (أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول : اللهم هوّن عليّ سكرات الموت[2]) . وقد سئل ﷺ عن الموت

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه من حديث ابن عمر .
(٢) متفق عليه .

وشدته فقال : (إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف) .

وقال شداد بن أوس : الموت أفظع هول في الدنيا والاخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالمناشيد وقرض بالمقاريض وغلي في القدور ، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم[1]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : (إذا حضر المؤمن ، أتت ملائكة الرحمة بحريرة بيضـــاء ، فيقولون : اخرجي راضية مرضياً عنك إلى روح من الله وريحان ، ورب غير غضبان ، فتخرج كأطيب ريح المسك ، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً ، حتى يأتوا به أبواب السماء ، فيقولون : ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض ، فيأتون به أرواح المؤمنين ، فلهم أشد فرحاً من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ ماذا فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه ، فانه كان في غم الدنيا ، فيقول : قد مات ، أما أتاكم ؟ قالوا : ذهب به إلى أمه الهاوية ، وإن الكافر إذا حضر أتته ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون : اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله عز وجل ، فتخرج كأنتن ريح جيفة ، حتى يأتون به باب الأرض فيقولون : ما أنتن هذه الريح ، حتى يأتون به أرواح الكفار[2]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يُصعدانها ــ قال حماد في روايته : فذكر من طيب ريحها ، ذكر المسك ــ قال : فيقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه . فينطلق به إلى ربه ، ثم يقول : انطلقوا به الى ربه ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل ، قال : وإن الكافر إذا خرجت روحه ــ قال حماد : وذكر من نتنهـــا ــ فردّ رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه

---

(١) احياء علوم الدين جزء ٤ ، ص : ٤٤٥ .

(٢) اخرجه النسائي واسناده حسن .

ـ هكذا ـ وذكر لعنًا ـ ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قِبَل الأرض، فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل[1] .

يقول الحـــارث المحاسبي في كتابه التوهم : (الموت لا محالة نازل بك بكربه وغصصه ونزعه وسكراته . فتوهَّم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك ، فتوهم نفسك في نزع الموت وكربه وغصصه وسكراته وغمه وقلقه ، وقد بدأ المَلَك يجذب روحك فوجدت ألم جذبه ثم تدارك الجذب واستحثّ النزع ، وجذبت الروح من جميع بدنك حتى إذا بلغ الكرب منك منتهاه وعمت آلام الموت جميع جسمك ، وقلبك وجلٌ محزون مرتقب منتظر للبشرى من الله عز وجل بالغضب أو الرضى ، وقد علمتَ أنه لا محيص لك دون أن تسمع إحدى البشريين من الملك الموكل بقبض روحك ، فبينا أنتَ في كربك وغمومك وألم الموت بسكراته ، إذ نظرتَ إلى صفحة وجه ملك الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها ، ونظرت اليه ماداً يده إلى فيك ليخرج روحك من بدنك فذلّت نفسك لما عاينتَ ذلك وعاينتَ وجه ملك الموت ، وتعلق قلبك بماذا يفاجئك من البشرى منه إذا سمعتَ صوته بنغمته أبشر ياولي الله برضا الله وثوابه ، أو أبشر يا عدو الله بغضبه وعقابه فتستيقن حينئذ بنجاتك وفوزك ويستقر الأمر في قلبك فتطمئن نفسك إلى الله ، أو تستيقن بهلاكك ويحل اليأس قلبك) .

٦ ـ فتنة القبر وعذابه

إن الموت يقترب من كل حيّ ، في وقته الذي رسمه الله عز وجل ومن ثم ينتقل الانسان إلى القبر ، وهو أول منزل من منازل الاخرة يلاقي فيه العذاب :

عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فذكرتْ عذاب القبر ، فقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، قالت عائشة : فسألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر ؟ فقال : (نعم ، عذاب القبر حق) قالت : فما رأيت رسول الله ﷺ ـ بَعْدُ

---

(1) اخرجه مسلم .

صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[1]) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (إن الموتى ليعذبون في قبورهم حتى إن البهائم لتسمع أصواتهم[2]) .

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : قام رسول الله ﷺ خطيباً ، فذكر فتنة القبر التي يُفتن فيها المرء ، فلما ذكر ذلك ضجّ المسلمون ضجة[3]) ، وزاد النسائي (حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ ، فلما سكنَتْ ضجّتهم ، قلت لرجل قريب مني : أيْ بارك الله لك ، ماذا قال رسول الله ﷺ آخر قوله ؟ قال : قد أُوحي إليّ : أنكم تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال) .

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : (بينا رسول الله ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ، ونحن معه ، إذ حادت به ، فكادت تلقيه ، وإذا أقبرُ ستة أو خمسة ، فقال : من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ قال رجل : أنا ، قال : فمتى ماتوا ؟ قال : في الشرك ، فقال : إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمعُ منه ، ثم أقبل علينا بوجهه ، فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال : تعوذوا بالله من عذاب النار ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب النار ، قال : تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال : تعوذوا بالله من فتنة الدجال ، قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال[4]) .

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس ، فسمع صوتاً . فقال : يهود تعذب في قبورها[5]) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه الطبراني في الكبير باسناد حسن .

(٣) اخرجه البخاري هكذا .

(٤) اخرجه مسلم .

(٥) اخرجه البخاري ومسلم والنسائي .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : (مرّ رسول الله ﷺ على قبرين ، فقال : (اما إنهما ليعذبان ، وما يُعذّبان في كبير ، ثم قال : بلى ، أمّا أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ، قال : فدعا بعسيب رطب ، فشقه باثنين ، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ، ثم قال : لعله أن يخفّف عنهما ما لم ييبسا [1]) . وفي رواية (لا يستبرىء من البول) .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال (هذا الذي تحرك [2] له العرش ، وفتحت أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ، لقد ضُمّ ضمّة ثم فُرِجَ عنه) .

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي : إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة [3]) .

وعن عائشة رضي الله عنهـــا قالت : قلتُ يا رسول الله : تُبتلى هذه الأمة في قبورها، فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة ؟ قال : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة [4]) .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ (يُثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) قال : (نزلت في عذاب القبر) .

وفي رواية أن النبي ﷺ قال (المسلم إذا سُئِلَ في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) . وفي أخرى قال : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) نزلت في عذاب القبر ، يقال له : من ربك ؟ فيقول ربي الله ، ونبي محمد ﷺ [5]) .

---

(١) أخرجه الجماعة الا الموطأ .

(٢) يعني سعد بن معاذ والحديث اخرجه النسائي واسناده صحيح .

(٣) أخرجه الجماعة الا ابا داود .

(٤) رواه البزار ورواته ثقات .

(٥) اخرجه البخاري ومسلم وابو داود والترمذي .

وعن هانيء مولى عثمان بن عفان ، قال : كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر يبكي حتى يبلّ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنـــار فلا تبكي ، وتذكر القبر فتبكي ؟ فقال : (إني سمعت رسول الله ﷺ يقول · (القبر أول منزل من منـازل الآخرة ، فان نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد) قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه [1]) .

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وانه ليسمع قرع نعالهم ، إذا انصرفوا أتاه الملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنتَ تقول في هذا الرجل ، محمد ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، قال النبي ﷺ : فيراهما جميعاً ، ــ قال قتادة : وذُكر لنـــا أنه يفسح له في قبره ــ وأما الكافر ــ أو المنافق ــ فيقول لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس فيه ، فيقال : لا دريتَ ، ولا تليتَ [2] ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين [3]) .

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال : (إن المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك ، فيقول له : ما كنتَ تعبد ؟ فإن الله هـــداه ، قال : كنت أعبد الله ، فيقول : ما كنتَ تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : هو عبد الله ورسوله ، فما يُسأل عن شيء بعدها ، فينطلق به إلى بيت كان له في النار ، فيقال له : هذا كان لك ، ولكن الله عصمك فأبدلك به بيتاً في الجنة ، فيراه ، فيقول : دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي ، فيقال له : اسكن ، قال : وان الكافر ــ أو المنافق ــ إذا وضع في قبره أتاه مَلَك فينتهره ، فيقول له : ما كنتَ تعبد ؟ فيقول : لا أدري ، فيقال له : لا دريتَ ولا تليت ، فيقال له : ما كنتَ تقول في هذا الرجل ؟ فيقول كنت أقول ما يقول

---

(١) أخرجه الترمذي واسناده حسن .

(٢) يقال : لا دريت ولا تليت ، اي لا تبعتَ الناس بأن تقول شيئا يقولونه .

(٣) رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم .

الناس ، فيضربه بمطراق بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين [1])

عن عطاء بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه (يا عمر كيف بك إذا أنت مت ، فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا اليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ثم لحتملوك حتى يضعوك فيه ، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك ، فاذا انصرفوا عنك أتاك فتّانا القبر منكر ونكير أصواتها كالرعد القاصف ، وبصائرهما كالبرق الخاطف يجران أشعارهما ، ويبحثان القبر بأنيابها ، فتلتاك وترتاك ، كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ فقال عمر ويكون معي مثل عقلي الان ؟ قال : نعم . قال : إذن أكفيكهما[2]) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : جاءت يهودية على بابي ، فقالت : أطعموني أعاذكم الله من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر ، قالت : فلم أزل أحبسها حتى جاء رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ما تقول هذه اليهودية ؟ قال (وما تقول) : قلت : تقول : أعاذكم الله من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر ، قالت عائشة : فقام رسول الله ﷺ ورفع يديه مدّاً يستعيذ بالله من فتنة الدجال ، ومن فتنة عذاب القبر ، ثم قال : (أما فتنة الدجال فانه لم يكن نبي إلا حذّر أمته ، وسأحدثكم بحديث لم يُحذّره نبي أمته : إنه أعور ، وان الله ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن . فأما فتنة القبر ، فبي يُفتنون وعني يُسألون ، فاذا كان الرجل الصالح أجلس في قبره غير فزع ولا مشعوف[3] ، ثم يقال له : فما كنت تقول في الاسلام ؟ فيقال : ما هذا الرجل الذي كان فيكم ؟ فيقول : محمد رسول الله جاء بالبينات من عند الله فصدقناه ، فيفرج له فرجة قِبل النار ، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً ، فيقال له : انظر إلى ما وقاك الله ، ثم تفرج إلى الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له : هذا

---

(١) روى ابو داود نحوه والنسائي باختصار ، ورواه احمد باسناد صحيح .

(٢) رواه ابن ابي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات ، قال البيهقي في الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلا .

(٣) الشعف : هو الفزع حتى يذهب بالقلب .

مقعدك منها ، ويقال : على اليقين كنتَ وعليه مت ، وعليه تبعث إنشاء الله . وإذا كان الرجل السوء أجلس في قبره فزعاً مشعوفاً . فيقال له : فما كنت تقول ؟ فيقول: سمعتُ الناس يقولون قولاً فقلت كما قالوا ، فيفرج له فرجة إلى الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له : انظر إلى ما صَرَفَ الله عنك ، ثم يفرج له فرجة قبل النار ، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً ، ويقال : هذا مقعدك منها ، على الشكّ كنتَ ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله ، ثم يُعذب[1]) .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ، ولما يُلحد بعد ، فجلس رسول الله ﷺ ،وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير وبيده عود ينكث به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : (استعيذوا بالله من عذاب القبر ــ مرتين أو ثلاثاً) ثم قال : (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأنّ وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحَنوط من حَنوط الجنة ، حتى يجلسوا منـــه مدّ البصر ، ويجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة أُخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من رفي السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منه كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، قال : فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ــ بأحسن أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا ــ حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوه إلى الأرض في جسده فأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان : من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: ما دينك ؟ فيقول : ديني الاسلام ، فيقولان : ماهذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ،

---

(1) رواه أحمد باسناد صحيح .

فيقولان : ما يدريك ؟ فيقول : قرأتُ كتاب الله وآمنتُ به وصدقته ، فينادي مناد من السماء : أن قد صدق عبدي فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويُفسح له في قبره مدَّ بصره ، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يُسرُّك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت ، فوجهك الحسن يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : ربِّ أقم الساعة ، ربِّ أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي . وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الاخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه معهم المسوح ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها ، فاذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن جيفة وجـــدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الريح الخبيثة ، فيقولون : فلان ابن فلان — بأقبح أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا — حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا ، فيُستفتح له فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ (لاتُفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى ، ثم تطرح روحه طرحاً ثم قرأ (ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ، فيقول : هاه هاه لا أدري ، قال : فيقولان له : ما دينك ، فيقول : هاه هاه لا أدري ، قال : فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ، فيقول : هاه هاه لا أدري ، فينادي مناد من السماء : أن كذب فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسؤوك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت ، فوجهك الوجه القبيح يجيء بالشر ، فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : ربِّ لاتقم الساعة وفي — رواية له

بعناه ، وزاد : فيأتيه آت قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بهوان من الله وعذاب مقيم ، فيقول : بَشّرك الله بالشر ، من أنت ، فيقول أنا عملك الخبيث ، كنت بطيئاً عن طاعة الله ، سريعاً في معصيته ، فجزاك الله شراً ، ثم يُقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً ، فيضربه ضربة فيصير تراباً ثم يعيده الله كما كان ، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين ، قال البراء : ثم يُفتح له باب من النار ، ويمهد له من فرش النار[1]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن المؤمن إذا قُبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : أُخرجي إلى رَوْح الله ، فتخرج كأطيب ريح مسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً فيشمونه حتى يأتوا به باب السماء ، فيقولون : ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من الأرض ، ولا يأتون سماء إلا قالوا : مثل ذلك ، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين ، فهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم ، فيقولون : ما فعل فلان ، فيقولون : دعوه حتى يستريح ، فانه كان في غم الدنيا ، فيقول : قد مات أما أتاكم ، فيقولون : ذُهب به إلى أمه الهاوية ، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون : أخرجي إلى غضب الله ، فتخرج كأنتن ريح جيفة ، فيذهب به إلى باب الأرض[2]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا قبر الميت ــ أو قال أحدكم ــ أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر نكير ، فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل ، فيقول ما كان يقول : هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ، ثم يُنوّر له فيه ، ثم يقال له نم ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب

---

(١) رواه أحمد باسناد رواته محتج بهم في الصحيح قال الحافظ : هذا الحديث حديث حسن ، رواته محتج بهم في الصحيح .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه وهو عند ابن ماجه بنحوه باسناد صحيح

أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وان كان منافقاً ، قال : سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله ، لا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ،فيقال للأرض : التئمي عليه ، فتلتئم عليه ، فتختلف أضلاعه ، فلا يزال فيها معذباً ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك[1]) .

يقول الامام الغزالي[2] (قال مجاهد : أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول : أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الظلمة ، هذا ما أعددتُ لك ، فما أعددتَ لي .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : يا فلان لقد أرقت الليلة أتفكر في القبر وساكنه ، انك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام ويجري فيه الصديد ، وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلي الأكفان ، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب .

وقال عبيد بن عمير الليثي : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها : أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد ، فان كنتَ في حياتك لله مطيعاً كنتُ عليك اليوم رحمـــة ، وإن كنت عاصياً فأنا اليوم عليك نقمة ، أنا الذي من دخلني مطيعاً خرج مسروراً ، ومن دخلني عاصياً خرج مثبورا) .

وقال يزيد الرقاشي : بلغني أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله ، فقالت : أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا .

قال عبيد الله بن عمير في جنازة بلغني أن رسول الله ﷺ قال : (إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول : ويحـــك ابن آدم أليس قد حذّرتني وحذرت ضيقي ونتني وهولي ودودي فماذا أعددت لي[3]) .

---

(١) رواه الترمذي وحسنه ، وهو كما قال ، رواه ابن حبان في صحيحه .

(٢) الاحياء ج ٤ .

(٣) رواه ابن ابي الدنيا في القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات ، ورواه ابن المبارك في الزهد الا انه قال بلغني ولم يرفعه .

قال محمد بن علي : ما من ميت يموت إلا مُثّل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة ، قال : فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته .

عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قول الله تعالى (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت) ، قال : أي شيء تريد ، في أي شيء ترغب ، أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار ، قال : لا ، لعلي أعمل صالحاً فيما تركت قال : فيقول الجبار : (كلا إنها كلمة هو قائلها) ، أي ليقولها عند الموت .

عن عمر بن عبدالعزيز أنه شيع جنازة فلما انصرفوا تأخر عمر وأصحابه ناحية عن الجنازة فقال له بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين جنازة أنت وليُّها تأخرتَ عنها وتركتها فقال نعم ، ناداني القبر من خلفي : يا عمر بن عبد العزيز ألا تسألني ماصنعتُ بالأحبة قلتُ بلى ! قال : أحرقتُ الأكفان ، ومزقتُ الأبدان ، ومصصتُ الدم وأكلتُ اللحم ، قال : ألا تسألني ما صنعتُ بالأوصال ؟ قلت : بلى ! قال : نزعتُ الكتفين من الذراعين والذراعين من العضدين ، والعضدين من الكتفين ، والوركين من الفخذين ، والفخذين من الركبتين ، والركبتين من الساقين والساقين من القدمين ، ثم بكى ، ثم قال : ألا إن الدنيا بقاؤها قليل وعزيزها ذليل وغنيها فقير وشابُّها يهرم ، وحيها يموت ، فلا يغرنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها ، فالمغرور من اغترّ بها . أين سكانها الذين بنوا مدائنها وشقوا أنهارها وغرسوا أشجارها وأقاموا فيها أياماً يسيرة ، غرّتهم بصحتهم فاغتروا بنشاطهم فركبوا المعاصي . إنهم كانوا والله في الدنيا مغبوطين بالمال على كثرة المنع عليه ، محسودين على جمعه .

ماذا صنع التراب بأبدانهم والرمل بأجسادهم والديدان بعظامهم وأوصالهم كانوا في الدنيا على أسرّة ممهدة ، وفرش منضودة بين خَدَم يخدمون وأهل يكرمون ، وجيران يعضدون . فإذا مررتَ فنادهم إن كنتَ منادياً ، ومُرّ بعسكرهم وانظر إلى تقارب منازلهم واسأل غنيهم ما بقي من غناه ، واسأل فقيرهم ما بقي من فقره ، واسألهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون ، وعن الأعين التي كانوا بها ينظرون واسألهم

عن الجلود الرقيقة والوجوه الحسنة والأجساد الناعمة ما صنع بهـــا الديدان . تحت الألوان وأطلت اللُّحمان ، وعفّرت الوجوه ، وتحت المحاسن وكسرت الفقار وأبانت الأحشاء ، ومزقت الأشلاء وأين حُجّابهم ونوابهم . أين خدمهم وعبيدهم ، وجَمْعهم ومكنونهم والله ما فرشوا فراشاً ولا وضعوا هنالك متكئاً ولا غرسوا لهم شجرا ، ولا أنزلوهم من اللحد قرارا

أليسوا في منازل الخلوات والبَلوات أليس الليلُ والنهار عليهم سواء . أليس هُم في مُدْلهمّة ظلماء وقد حيل بينهم وبين العمل وفارقوا الأحبـــة . فكم من ناعم وناعمة . أصبحوا ووجوههم بالية ، وأجسادهم من أعناقهم نائية ، وأوصالهم متمزقة ، وقد سالت الحدقات على الوجنات ، وامتلأت الأفواه دماً وصديداً ، ودبّت دوابُّ الأرض في أجسادهم ففرقت أعضاءهم ثم لم يلبثوا والله إلا يسيراً حتى عادت العظام رميما . قد فارقوا الحدائق وصاروا بعد السّعة إلى المضايق، وقد تزوجت نساؤهم وترددت في الطريق أبناؤهم وتوزعت الورثة ديارهم وتراثهم فنهم والله الموسّع له في قبره الغضّ الناضر فيه المتنعم بلذته ، ياساكن القبر غداً ما الذي غرّك من الدنيـا ؟ هل تعلم أنك تبقى أو تبقى لك ؟ أين دارك الفيحاء ونهرك المطرد وأين ثمرتك الحاضر ينعها ؟ وأين رقاق ثيابك ؟ وأين طيبك وأين بخورك ؟ وأين كسوتك لصيفك وشتائك ؟ أما رأيته قد نزل به الأمر فما يدفع عن نفسه دخلاً وهو يرشح عرقاً ويتلظى عطشاً يتقلب في سكرات الموت وغمراته جاء الأمر من السماء وجاء غالب القدر والقضاء جاء من الامر الاجل ما يمتنع منه هيهات يا مُغْمِضَ الوالدِ والأخ والولد وغاسله ، يا مكفن الميت وحامله .. يا مخليه في القبر وراجعاً عنه .. ليت شعري كيف كنت على خشونة الثرى .. ليت شعري بأي خدّيك يبدأ البلى وأي عينيك سالت أولاً يامجاور الهلكات صرت في محل الموتى .. ! ليت شعري ما الذي يلقاني به مَلَكُ الموت عند خروجي من الدنيا وما يأتيني به من رسالة ربي . ثم انصرف فما بقي بعد ذلك إلا جمعة ثم مات رحمه الله[1] .

يقول الامام الحـــارث بن أسد المحاسبي (.. الموت لا محالة نازل بك بكربه وغصصه ونزعه وسكراته . فتوهم نفسك وقد صُرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلا

(1) الوصية الموجزة للمرحوم الشيخ سعيد البرهاني عليه رحمة الله .

إلى الحشر إلى ربك ، فتوهم نفسك في نزع الموت وكربه وغصصه وسكراته وغمه وقلقه ، وقد بدأ الملك يجذب روحك فوجدت ألم جذبه ، ثم تدارك الجذب واستحث النزع وجُذبت الروح من جميع بدنك حتى إذا بلغ منك الكرب منتهاه وعمت آلام الموت جميع جسمك ، وقلبك وجل محزون مرتقب منتظر للبشرى من الله عز وجل بالغضب أو الرضى ، وقد علمت أنه لا محيص لك دون أن تسمع إحدى البشريين من الملك الموكل بقبض روحك ، فبينا أنت في كربك وغمومك وألم الموت بسكراته ، إذ نظرت إلى صفحة وجه ملك الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها ، ونظرت اليه ماداً يده إلى فيك ليخرج روحك من بدنك ، فذلت نفسك لما عاينت ذلك وعاينت وجه ملك الموت ، وتعلق قلبك بماذا يفجأك من البشرى منه إذا سمعت صوته بنغمته أبشر يا ولي الله برضا الله وثوابه أو أبشر يا عدو الله بغضبه وعقابه ، فتستيقن حينئذ بنجاتك وفوزك ويستقر الأمر في قلبك فتطمئن إلى الله نفسك ، أو تستيقن بعطبك وهلاكك ويحل الإياس قلبك وينقطع من الله عز وجل رجاؤك وأملك ، فيلزم حينئذ غاية الهم والحزن أو الفرح والسرور قلبك حين انقضت من الدنيا مدتك ، وانقطع منها أثرك وحملت إلى دار من سلف من الأمم قبلك .

فتوهم نفسك حين استطار قلبك فرحاً ومسروراً ، أو ملىء حزناً وعبرة ، وبفترة القبر وهول مطلعه وروعة الملكين وسؤالها فيه عن إيمانك يوبك ، فثبت من الله جل ثناؤه بالقول الثابت أو متحير شاك مخذول . فتوهم أصواتها حين يناديانك لتجلس لسؤالها اياك ليوقفاك على مسائلتها ؛ فتوهم جلستك في ضيق لحدك ، وقد سقطت أكفانك على حقويك . فتوهم ذلك ثم شخوصك ببصرك الى صورتها وعظم أجسامها ، فان رأيتها بحسن الصورة أيقن قلبك بالفوز والنجاة ، وإن رأيتها بقبح الصورة أيقن قلبك بالهلاك والعطب ، فتوهم أصواتها وكلامها بنغماتها وسؤالها ، ثم هو تثبيت الله إياك إن ثبتك أو تحييره إن خذلك .

فتوهم جوابك باليقين أو بالتحير أو بالشك ، وتوهم اقبالها عليك إن ثبتك الله عز وجل بالسرور وضربها بأرجلها جوانب قبرك بانفراج القبر عن النـــار . ثم توهم

وهي تتأجج بحريقها ، وإقبالها عليك ، وأنت تنظر الى ما صرف الله عنا فيزداد لذلك قلبك سروراً وفرحاً وتوقن بسلامتك من النار بضعفك . ثم توهم ضربها بأرجلها جوانب قبرك وانفراجه عن الجنة بزينتها ونعيمها وقولها لك : يا عبد الله انظر إلى ما أعدّ الله لك ، فهذا منزلك وهذا مصيرك . فتوهم سرور قلبك وفرحك بما عاينت من نعيم الجنان وبهجة ملكها وعلمك أنك صائر إلى ماعاينت من نعيمها وحسن بهجتها . وإن تكن الأخرى فتوهم خلاف ذلك كله من الانتهار لك ومن معاينتك الجنة وقولها لك : انظر إلى ما حرمك الله عز وجل ، ومعاينتك النار وقولها لك : انظر إلى ما أعدّ الله لك ، فهذا منزلك ومصيرك . فأعظم بهذا خطراً ، وأعظم به عليك في الدنيا غمّاً وحزناً حتى تعلم أي الحالتين في القبر حالك ، ثم الفناء والبلاء بعد ذلك ، حتى تنقطع الأوصال فتفنى عظامك ويبلى بدنك ، ولا يبلى الحزن أو الفرح ، متطلع للقيام عند النشور إلى غضب الله عز وجل وعقابه ، أو الى رضا الله عز وجل وثوابه ، وأنت مع توقع ذلك معروض عليك منزلتك من الجنة أو مأواك من النار[1]) .

* * *

(١) كتاب التوهم ص ٢ ـ ٤ .